

محمد الأديب الأعظم

للأستاذ د. محمد خديجة

←→

لا أدري لماذا
يشفق الكتاب
أن يمتوا النبي
الكريم بالأديب
العظيم؟ هل في
ذلك سبة أو فيه
حط من قدره صلى
الله عليه وسلم؟ وإذا
لم يكن الرجل الذي
أوحى إليه بهذا
القرآن أديباً فاذا
يكون الأديب؟



لقد ترك النبي فينا كتاب الله وسنة النبوة، وفيها جوامع الكلم التي لم يؤتها إلا هو. ولقد علم مهذين ما لم يعلم فيلسوف بفلسفته، ولا أديب بأدبه، ولا نبي بما أرسل به... أسلوب معجز، ومعنى معجز، واتفاق بين الأسلوب والمعنى معجز، وغرض يشمل كل الكائنات معجز، وحياة هي البطولة المعجزة... وأمية لا تعرف القراءة والكتابة يسبح القراء والكتاب في بحر لحي من قرأتها وحديثها... علماً وأدباً ولفظةً وبياناً وهدى وتشريعاً وأخلاقاً... فاذا يصنع الأدب غير ذلك؟ الأديب يترك أثره في حيز محدود من بيئته، لأيام معدودات من زمنه، ويكون بعد ذلك رجماً كرجع الصدى في تضاعيف ذكرياته، حيث يكون شعراً في ديوان، أو قصة يلتذ بقراءتها أفراد، أو درامة يستمتع بشهوها ملايين الناس، ثم ينصرفون فلا تكون لها في أذهانهم إلا صورة أو فكرة قد تدفعهم إلى فضيلة أو تنهاهم عن رذيلة... فاذا ترك الأديب الأعظم محمد بن عبد الله من هذا وذاك؟! أستغفر الله بل ترك أدباً حياً يتقلتل في نفوس الملايين من الناس للملايين

من الأجيال حتى تقوم الساعة. يحضهم على الخير، وينهاهم عن المنكر، ويستهوهم بصور رائعة من أدبه الحق الذي نسميه الأدب الواقعي يُشرب قلوبهم المحبة الخيرة النيرة، ويمررها بالسلام القائم الدائم، ويعلمهم الإنسانية، ومحبة إليهم الإخاء، ويروضهم على المساواة... إلا فيما رفع الله به الناس بعضهم فوق بعض درجات قد يقول قائل إن هذه الدعوى من باب إقام الدين في الأدب

والأدب في الدين.. لأن الدين هو الذي صنع كل هذا.. ونحن نقول إن الدين هو الذي صنع كل هذا حقاً ولكنه صنعه بأسلحة شتى ووسائل متفاوتة، وقد كان أمضى هذه الأسلحة، وأشرف تلك الوسائل.. هو الأدب.. فالرسول الكريم كان حلوا الكلام أغر البيان طلي المقاطع، ذا قدرة عجيبة في تنسيق حجته، والتدقيق في عبارته، في غير كلفة ولا صنعة حتى وهو في مواقف الخطابة.. ولم يحفظ الأثر أنه حصر مرة أو أرتج عليه، أو التاث عليه القول، لا على المنبر، ولا في حلقة الدرس، بل كان يتدفق ويشفق الحديث إذا اقتضى الموقف الإطناب، ويقتصر على العظة الصغيرة بلفظها، الكبيرة بفحواها إذا لم يقتض الحال غير ذلك ثم ها هم أولاء الأنبياء جميعاً... فن منهم تحدى قومه بقوة البيان وصوغ الكلام وإيجاز الأسلوب؟! وما ذلك كله إن لم يكن أدباً؟ وماذا يكون صاحبه إن لم يكن سيد الأدباء؟! إن الله الذي يرس القرآن بلسان محمد قد تحدى الناس أن يأتوا بشيء مثله، فما استطاعوا؟ وما يزال التحدي قائماً، ولسوف يعجز البشر جميعاً عن أن يجيشوا بشيء مثل القرآن... والقرآن وحى الله، وقد سيره الله بلسان نبيه، والقرآن تشريع ليس فيه جفاف القانون الرضوي، وقصص من النسق الإلهي الذي لا يتعلق الفرائض بالفتنة في الحياة الدنيا بل يسمو بها إلى لئذ الحياة العليا؛ ثم عظة بالغة، ودعوة إلى الحق، ودستور للناس لا يتوره نقص ولا تشوبه شائبة هل الأدب قصة أو درامة فحسب؟! إن كان هذا فقد قص النبي أحسن القصص وأقواء وأكثره حلاوة وطلاوة، وأشد روعة وتأثيراً... وأي قصص أشهى وأجلى وألذ مما يرس الله بلسان نبيه في آدم ونوح وإبراهيم وموسى ويعقوب ويوسف ويونس وهود ولوط وعيسى من أنبياء الله؟! أم يقولون إنها أخبار مروية فيما يؤمنون أنها الكتب المقدسة التي أنزل الله من قبل؟! وتقول أجل... ولكن أين هي هذه

علل أحد البصريين أُمّية الرسول الكريم : فقال : « إن الله إنما جعل نبيه أُمياً لا يكتب ولا يحسب ولا ينسب ولا يقرض الشعر ، ولا يتكلف الخطابة ، ولا يتمد البلاغة لينفرد الله بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة ، ويقصره على معرفة مصالح الدين دون ما تباهى به العرب من قيافة الأثر ، وعيافة الطير ، ومن العلم بالأنواء وبالنجيل ، وبالأنساب وبالأخبار ، وتكلف قول الأشعار ، ليكون إذا جاء القرآن الحكيم ، وتكلم بالكلام العجيب ، كان ذلك أدل على أنه من الله ... وزعم أن الله لم يمنعه معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم ليكون أنقص حظاً من الحاسب وال كاتب ، ومن الخطيب والناسب ، ولكن ليجمله نبياً ، وليتولى أمر تعليمه بما هو أزرى وأنمى ، فإنما نقصه ليزيده ، ومنعه ليعطيه ، وحجبه عن القليل ليحبل له الكثير ... »

وقد تولى شيخ أدباء العرب أبو عثمان الجاحظ (البيان ج ١ ص ٢٣٠) نقض هذا الكلام فقال : « وقد أخطأ هذا الشيخ ولم يرد إلا التحير ، وقال بمبلغ علمه ومنتهى رأيه ، ولو زعم أن أداة الحساب والكتابة ، وأداة قريض الشعر وجمع النسب قد كانت فيه تامة وافرة مجتمعة كاملة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم صرف تلك القوى وتلك الاستطاعة إلى ما هو أزرى بالنبوة وأشبه بمرتبة الرسالة ، وكان إذا احتاج إلى البلاغة كان أبلغ البلغاء ، وإذا احتاج إلى الخطابة كان أخطب الخطباء ، وأنسب من كل ناسب ، وأقرب من كل قائف ، ولو كان في ظاهره والمعروف من شأنه أنه كاتب حاسب ، وشاعر ناسب ، ومتفرس قائف ، ثم أعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة ، لما كان ذلك مانعاً من وجوب تصديقه ، ولزوم طاعته ، والالتقياد لأمره ، على سخطهم ورضاهم ، ومكروههم ومحبوبهم ؛ ولكنه أراد ألا يكون للشاعر متعلق عما دعا إليه ، حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حجاب وإن رق ، ويكون ذلك أخف في المؤنة ، وأسهل في المحنة ، فلذلك صرف نفسه عن الأمور التي كانوا يتكلفونها ويتنافسون فيها ، فلما طال هجرانه لقريض الشعر وروايته صار لسانه لا ينطق به ، والمادة توأم الطبيعة ، فأما في غير ذلك فإنه إذا شاء كان أنطق من كل منطوق ، وأنسب من كل ناسب ، وأقرب من كل قائف ، وكانت آلته أوفر ، وأداته أكل ... إلا أنها كانت مصروفة إلى ما هو أبعد ... وبين أن يضيف إليه المادة الحسنة ، وامتناع الشيء عليه من طول الهجران له فرق ... ومن العجب أن صاحب هذه المقالة لم يره

الكتب التي أنزل الله؟ أباتية هي على ما أنزل الله لم يتورها تغيير ولا تبديل؟ ألم تشحها أقلام الرواة والنسّاخ بما طاب لهم وبما نذت به أقلامهم؟ ... أحقاً قد زنى داود؟ أحقاً قد وقع جميع الأنبياء في الخطيئة؟ لقد جاء القرآن مصداقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل مما لم تبدله قرآن البشّر ، فبرأ الأنبياء مما أخذوا به باطلاً من الدنس ، ثم روى أخبارهم بلسان صدق عبيّ وبأروع بيان وأدق أسلوب ، ثم حدث النبي بما يشبهه أن يكون تليفاً وشرحاً وتفسيراً فجاء بكل معجب وكل مطرب ... ثم حدث بالأحاديث القدسية العالية التي مسرحها السماء ومُلمها الله القدير ، فأى درامات الكتاب والشعراء أروع مما تحدث به النبي؟ وأى حديث زخرفه قلم شاعر أو نأثر أو روائى يسمو إلى الحق الذي تنزل به جبريل على فؤاد محمد وما حدث به محمد من تخاصم أهل النار وتحدث أهل الجنة ، والواقفين على الأعراف ، والولدان المخلدن ، والكواعب الأتراب ، ومخاطبة العزيز اللطيف لنى فاز من عباده ، وغيب الكافرين وما يقع بينهم وبين إبليس من شحناء وموجدتهم على الشياطين والنار تؤزهم ...؟

هذا هو القصص الحق الذي لم تهرجه راعة مؤلف ، ولم يخلفه خيال روائى . وهذا هو قصص الله الذى خلق الإنسان علمه البيان ... الله الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ... الله الذى أرسل للناس نبياً عربياً من الأميين ، فقصى أن تكون أُمّية عجيبة مُعجزة تفهم كل شيء وتبني كل شيء ، وتبهر المتعلمين والدارسين بما لا يستطيعونه ولا يقدرّون على مثله أو بعضه ... أُمّية أعدها الله لهذا الأمر العظيم إعداداً لا تقوى جامعاتنا الحديثة على شيء مثله ... أُمّية أبوتها في بنى هاشم ، وخثولها في بنى زهرة ، ورضاعها في سعد بن بكر ، ونشأتها في قريش ، وزواجها في بنى أسد ، وهجرتها إلى الأوس والخزرج . فانظر كيف تقلبت في القبائل فتمرست بها ، ووعت أمانها ، ووقفت على أسرار بيانها ، فلما بشها الله لهذا الأمر لم تضق ذرعاً بأحد ، ولم تضق فهماً بلسان أحد ، بل كانت تكلم كلاً بلسانه ، وترد على كل بلهجته . بل هي قبل أن يبعثها الله لتبليغ رسالته كانت تحب الأدب وتشغف به ، فكانت تتردد على الأسواق تصنى إلى الشعراء والخطباء ، وتحفظ من الخطب ولا ترى حرجاً في أن تروى منها^(١) .

(١) في البيان والبيان ج ١ ص ٢٠٣ أن النبي (ص) سمع قس بن ساعدة وقال فيه : رأيت سوق مكاب على جبل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا ، فاسموا ومدوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . وجاء في كتب الأدب غير ذلك .

في حال معجز؛ قط ، بل لم يره إلا وهو إن أطال الكلام قصر عنه كل مطيل ، وإن قصر القول أتى على غاية كل خطيب ، وما عدم منه إلا الخط وإقامة الشر ... الخ »

فالجاحظ هنا يحامى عن معرفة النبي لأداب العرب - وهو ما يعنيننا - وعن إلامه بما كان نخر قومه وعمل نبوغهم ... ولما كان أعز ما يفتخر به العرب هو البيان فإنه لم يمنع النبي مانع إذا أراد البلاغة أن يكون أبلغ البلاء ، وإذا أراد الخطابة أن يكون أخطب الخطباء ، وإنه إن أطال الكلام قصر عنه كل مطيل ، وإن قصر القول أتى على غاية كل خطيب ... »

وهذا دفاع مجيد من شيخ الأدباء العرب عن النبي الأديب الأعظم في مرض ما فهم أحد علماء البصرة من أمية محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو دفاع رجل كان يهب حياته للأدب ، وكان يعنى بأدب الرسول خاصة ، وكان يصف كلامه فيقول (١) : « هو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد : « وما أنا من للتكفين » فكيف وقد غاب التشديق ، وجانب أصحاب التعقير ، واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصود في موضع القصر ، وهجر التريب الوحشي ، ورغب عن المهجين السوق فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالنصمة ، وشيد بالتأييد ، وسر بالتوفيق

« وهذا الكلام الذي أتى الله المحبة عليه ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الافهام وقلة عدد الكلام ، ومع استغنائاه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كفة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أغممه خطيب ، بل يند الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتبس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهز ولا يلزم ، ولا يُعطى ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر . ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقفاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين في فوائده ، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيراً ... »
والذي وصف به الجاحظ كلام الرسول قول حق ، وهو كان

يفضل به كلامه صلى الله عليه وسلم على كل كلام العرب ، أما نحن فنجعل حكم الجاحظ أعم وأشمل . فليس في كلام أحد من القرنية قاطبة كلام يشبه كلام الرسول فيما رسمه الجاحظ ... وقد يقول قارئ غير مسلم : « كاتب مسلم متحمس للرسول فهو لا يستطيع أن يقول غير هذا ! » كلا والله ... فلقد قرأت ودرست أدب الأقدمين شعراً ونثراً وخطباً ؛ ولقد قرأت ودرست أدب النهضة في جميع الممالك الأوربية ؛ ولقد قرأت ودرست ووازنت بين أدباء عصر بركليس وأدباء عصر إليصابات ، وأدباء عصر لويس ، وأدباء القيصرية الروسية ، فلا والله ما وجدت أجدهم يرتفع إلى أدب الرسول ولا يحكيه غزارة ورقة وازدحاماً بالمعاني وشمولاً للاغراض . وهذه هي خطب ديموستين في التبغيض في الارستقراطية والتبشير بالديمقراطية ... أين هي من هذه المساواة العجيبة التي أقامها محمد بين هذه الملايين بقوله : إنه لا فضل للعربي على أعجمي إلا بالتقوى ؟ بل أين هذا الخطيب الوضيع المرتضى الذي يقول بلسانه ما ليس في قلبه ، والذي فر من مواطنيه اليونانيين حتى إذا لاحقوه وضيقوا عليه عمد إلى السم ليضع حداً لهزلة حياته الفياضة بالمخازي ؟ أين هذا الخطيب الذي يحفظ الأثر خطبه كأنها المثل الأعلى للخطابة من الرسول الكريم الذي لم يكن ينطق عن الهوى ، والذي ألف بخطبه بين أشد القلوب عنجهية وأفدحها جاهلية وأكثرها عصبية ، تفلق منها أمة تعبد رباً واحداً بعد أرباب ، وتنتشر من الصحراء بمصاييح الهداية فتعملاً للشرقين والمغربين نوراً وهداية وحكمة وعرفاناً ؟ ثم خطيب الرومان شيشرون ! هذا الرجل الذي فضع مارك أنطوان بخطبه الرنانة .. ماذا ترك لخير الإنسانية من كل ما كتب وخطب ؟ لقد كان محامياً مدرهاً ، فهل كسب للإنسانية قضية كهذه القضية التي كسبها لها محمد بن عبد الله ؟ لقد كتب في القانون والفلسفة والأخلاق ، فهل حل معضلاتها المعقدة كما حلها محمد بن عبد الله النبي الأمي ؟ ولقد حفظ لنا الأثر كثيراً من خطبه ومقالاته ، فهل فيها ما يرتفع إلى بيان محمد وبلاغة محمد ؟ هل استطاع أن يضع للرومان دستوراً يحمي الجمهورية ويحول دون قيام الامبراطورية كهذا الدستور الذي أوحى به إلى محمد ، والذي يَسره الله بلسان محمد ؟

ثم هذا دانتي ... هذا الكاثوليكي الفتح ... الذي يرفعه مؤرخو الأدب إلى ذروة المجد بما بهرج في الكوميديا الإلهية ؟ ماذا جاء به من السحر في هذه المنظومة ؟ لقد أبتنا بما نشرناه

لقد كتب روسو إنجيل الثورة، فهل رسم فيه مارسم القرآن للناس أجمعين في كل المصور؟! وهل كاتب إنجيل الثورة كهذا الوحي الذي يسه الله بلسان محرر؟! ثم هؤلاء منشئو الأدب الألماني: جوته صاحب فاوست، وشيللر صاحب وليم تل، ولسنج مؤلف لاوكون، وهم الذين أعدوا الذهن الألماني لإعداده الذي غير عليه قرن ونصف قرن، الإعداد الذي لا يعرف شيئاً وهو المثل الأعلى غير القوة والنسب، هل جعلوا ألمانيا تقهر العالم في أقل من عشر سنين كما جعل محمد أمته تصنع ذلك؟ وإذا قدر لألمانيا أن تصنع ذلك، فهل كانت تنشر الأمن والطمانينة والعلم والنور ودين الحق والسلام كما ينشر العرب ذلك جميعاً في ربوع العالم؟ أم أنها كانت تستعبد الناس وتذلهم وتقول لهم أنتم ساميون وحاميون... و... آريون... أما نحن فأريون نورديون؟! في حين يقول محمد للناس: « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى !! »

أم أدباء روسيا: لرمثوف وجوجل وتولستوى ودستوفسكي وترجينيف وبوشكين وجوركي؟! ماذا أسلف هؤلاء جميعاً؟! لقد مهدوا بأدبهم الباطن للتوجع البائس الفقير الفارق في الدموع لهذه الشيوعية الخربة التي تستبد بالناس وتسموهم الخسف وتهدم مساجدهم وكنائسهم ويهمهم وتبيح نساءهم باسم الدولة... فكأنهم مخلصوا من راسبوتين ليقعوا في براثن ستالين!!

وبعد... فنحن لا نحصى أدباء العالم هنا لنوازن بين ما انتهى إليه أدبهم وبين ما انتهى إليه أدب الرسول الكريم... ونحن لا نقص من الآداب الرائعة التي لها قيمتها ولها أثرها لرفع أدب نبينا بغير الحق، بل نحن نقارن بين مثل ومثل ونوازن بين خير كثير أصاب الإنسانية على يد رجل واحد وخير كثير أصابها على أيدي كثيرين، وشتان بين الأديين

أما أن يقول أحد إن الأدب هو القصة، فلقد قص الرسول أحسن القصص وأروعها، في أحسن عبارة وأقوى أسلوب... وأما أن يقول أحد إن الأدب هو الشعر، فما كان محمد شاعراً، ولم ينبغ له أن يكون شاعراً، ومع ذلك فقد يسه الله بلسانه في القرآن من المعاني والأوصاف والأمثال والتشريع والحكمة وجمال الأداء، وإيجاز التراكيب، ما لم يتيسر لشاعر من شعراء العالمين. وكذلك حديث رسول الله، فهو ثروة ثانية من أروع صور الآداب، ومنهل عذب للوالمدين

وأما أن يقول أحد إن محمد لم يؤلف درامة، فحسبه أنه كان

في « الرسالة » أن كل شيء رائع في هذه القصيدة ليس من صنع دانتى، بل هو ماسرق دانتى من أخيلة^(١) القرآن وبيان الأحاديث في وصف الجنة ووصف الجحيم، وذلك بما انتشر من ثقافة القرآن وثقافة الأحاديث بعد الحروب الصليبية وقبلها عن طريق الأندلس وعن طريق صقلية إلى فرنسا ثم إيطاليا

ثم هذا ملتون... فإين ما جاء في فردوسه من الحرب بين الشيطان وبين المسيح وأجناد المسيح مما جاء في القرآن والحديث من تحاورين الله العلي وبين إبليس، وبين إبليس وبين ملئه الذين أغواهم فأدخلهم النار ثم تبرأ منهم وهو يرسف معهم في سواء الجحيم؟! ثم هذا جون بئنين! فإذا جاء به في « رحلة الحاج » مما ليس له مثل بل أمثال تبذه وترى به في أدب محمد النبي الأمي؟ وهذا سيكون الأديب الثابت السام والكاتب الأخلاقي الفيلسوف المرتشى الذي لم يرع لندى فضل عليه فضله ولم يكن عنده من الرفاء ما يميز به ذوى الأيدي الفر عليه^(٢)، ماذا كتب في فصوله في الأخلاق مما لم يسبقه إليه الرسول الأعظم؟

والأدباء العظام في عصر لويس الرابع عشر: بيير كورنيل وديكارت وموليير وراسين ولافونتين، إننا نقولها كلمة حق لا تصدر عن حماسة فحجب، بل عن تروية ويقين: إن المثل الرائعة التي زاد بها هؤلاء في تراث الفكر الإنساني والثقافة الإنسانية هي قل من أكثر مما ضاعف به النبي هذا التراث، ونحن نقول المثل لأن النبي لم يكن ضحاً كما كوليير ولا فيلسوفاً كديكارت ولا مؤلف درامات كرامين، بيد أنه مع ذلك أنشأ للإنسانية مثلاً أسى مما أنشأ هؤلاء، وأنشأها كلها عن طريق الأدب

والأدباء الذين مهدوا للثورة الفرنسية... فولتير وديدرو وبومارشيه وروسو... هل أنشأوا ثورة كهذه الثورة التي أنشأها محمد بن عبد الله وقام بها وحده؟! وأين هي الثورة الفرنسية التي انتهكت فيها الحريات باسم الحرية، وخضعت فيها الكرامات والشرائع لجنون الشعب وعريضة النساء ولوثة الأوشاب من تلك الثورة العظيمة في سبيل الحق وخير الإنسانية وانتقال العقل من رائن الأعمال الحجرية التي كان يعبدها الناس... هبل ويعوث ويموق ونسر واللات والعزى وضمار؟! أي التوريتين كانت أروع وأيهما كانت أعود بالخير على الناس وعلى الأفعام؟!

(١) نحن نؤمن أنه ليس بالقرآن خيال إنما به الحق المحض، إنما نحن هنا بمرض دراسة أدبية فحسب
(٢) سوف نكتب عن كل هؤلاء إن شاء الله في فصلنا (أعلام الأدب)